# جوانب منسية من التأسي برسول الله ﷺ

الدكتور رمضان يخلف *

## مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

يعد موضوع التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم أحد المواضيع الواسعة والمهمة التي تتطلب تناوله بأكثر من بحث واحد لدراسته من جوانبه المختلفة، ذلك أن التأسي بمفهومه الأصولي والفقهي يمكن أن يكون شاملا لكل أمر أو نهي في شرع الله تعالى، وهو إعمال حكم الله تعالى فعلا أو تركا على الوجه الذي شرعه الله تعالى وعلى الصفة التي أتى بها النبي ـــ ص ـــ ومن هنا فإن دراسة موضوع التأسي اليوم قد تتسع لتشمل ما يأتي:

ـــ بيان فضل التأسي بالنبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وأهميته في بناء شخصية المسلم بين الماضي والحاضر.

ـــ بيان ضوابط التأسي به ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وما يترتب على الأخذ بها

---

* ـــ أستاذ مساعد مكلف بالدروس في التفسير وعلوم القرآن، بكلية أصول الدين والشريعة والحضارة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

من نتائج علمية وسلوكية.

ـــ تخليص موضوع التأسي بالرسول الكريم مما شابه من مظاهر أفسدت معنى التأسي وذهبت برونقه وإشراقته، إما بسبب غلو، أو تسيب، أو تحريف، أو انتقائية وغيرها.

ـــ توضيح مراتب التأسي بأعمال النبي ـــ ص ـــ وأحوال كل مرتبة من هذه المراتب ومظاهرها وثمراتها.

وأحسب أن بحثي هذا ينضوي تحت هذا المحور الأخير فأقول:

الأسوة مثل القدوة، والاقتداء هو السير على سنن من يتخذه قدوة. فنقول ائتسى فلان بفلان أي حذا حذوه، أو نهج نهجه في قول أو عمل أو اعتقاد ونحوه. ولي في فلان إسوة وأسوة أي قدوة وائتمام([1]). وتطلب الأسوة هو تطلب الكمال عن طريق الحرص على أن يكون أمام الإنسان مثل يحتذى به، أو قدوة يتطلع إلى التشبه بها، مع استشعار الإنسان روح التأسي الحميد في أفعاله وأحواله.

والتأسي بهذا المفهوم هو طموح إنساني منذ القديم، كما أنه فضيلة من فضائل الإسلام، بل فريضة من فرائض الدين، ذلك أن الله تعالى لما أنزل كتابه فقال: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك **فاتبعوه** واتقوا لعلكم ترحمون﴾([2]) فإنه لم يترك هذا الإتباع لاجتهاد الناس وفهومهم وأذواقهم، بل أنزل كتابه على بشر مثلنا، وأمره أن يكون هو أول من يمتثل لأحكام هذا الكتاب، ليصبح مثلا يحتذى به وأسوة يقتدى به، فكانت سيرته هي الترجمة الصحيحة لهذا الإتباع للكتاب، والمثل الأكمل في فهم هذا الدين عقيدة وعبادة وشريعة وأخلاقا، وسنته هي الشارحة لما أجمل أو غمض من كتاب الله تعالى، وقد نص القرآن الكريم على ذلك في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾([3]) ومنها قوله

---

[1]. إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، 1984م، مادة: أسا، مج: 5 ص:2268

[2].سورة الأنعام، الآية: 156

[3]. سورة النحل: الآية: 44

تعالى أيضا: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾([1])

إن الدعوة إلى التأسي بالنبي ــ ص ــ في الإتيان بأوامر الله تعالى ونواهيه قد تكررت في القرآن الكريم مرات كثيرة، فتارة وردت بأسلوب التلميح، وتارة أخرى وردت بأسلوب صريح.

كما أن الدعوة إلى التأسي به صلى الله عليه وسلم في القرءان الكريم قد جاءت قد جاءت على معنيين:

1 ــ **المعنى الأول**: وهو الذي نجده عند الأصوليين، ويتعلق بكيفية أداء المسلم لعباداته وشعائر دينه، والوفاء بحقوق الله تعالى وحقوق عباده على الوجه الذي فرضه الله تعالى وأفهمه نبيه، ثم كلفه ببيانه في قوله تعالى: "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم.." كما نص عليه النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في أكثر من حديث كقوله:" صلوا كما رأيتموني أصلي"([2]) وقوله أيضا:" لتأخذوا عني مناسككم "([3]).

وقد أفاض في شرح هذا القسم الفقهاء والأصوليون وعلماء السلوك بما لا مزيد عليه، وهذا القدر من الاقتداء به ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمتمثل في طاعته واتباعه في أقواله وأفعاله، هو الحد الأدنى من التأسي الذي يشترك فيه عموم المسلمين، ولا تصح عبادتهم أو تسلم عقيدتهم إلا بالتحقق به.

2 ــ **المعنى الثاني**: وهو ما جاء في القرآن الكريم من الدعوة إلى التأسي به في مواقفه الجهادية، وأخلاقه العالية، ومنهجه في الدعوة إلى الله والتمكين لدينه، وهو تأس في الموقف وفي المنهج، والمتأمل في الآيات التي جاءت في الدعوة إلى التأسي به ــ صلى الله عليه وسلم ــ يجدها كلها وردت لتأكيد هذا المعنى الثاني، ويتضح هذا بجلاء من خلال وقفاتنا السريعة أمام هذه

---

[1]. سورة الحشر: الآية: 7

[2]. رواه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأذان، باب: الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، طبعة دار الفكر، 1981 م، 155/1 رقم: 631.

[3]. رواه مسلم في جامعه، كتاب الحج، باب بيان قوله لتأخذوا مناسككم،طبعة دار الفكر، 79/4 .

الآيات الكريمة التي وردت في معرض الدعوة إلى التأسي بالنبي الكريم.

**الآية الأولى:**

**قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين﴾**([1]) ففي ظاهر الآية دعوة لعموم التأسي بالنبي ـــ ص ـــ ولكن إذا ربطنا الآية بسياقها وقصة نزولها فإننا نجد معناها مقصورا على نوع رفيع من التأسي لا يتحقق به إلا من ارتقى بنفسه إلى درجة من الإخلاص والتجرد لله تعالى، واليقين والتصديق بلقائه، ذلك أن مطلع سورة آل عمران تناول موضوع المفاصلة العقدية بين عقيدة التوحيد وعقيدة أهل الكتاب، ثم ربطت ذلك بالمفاصلة الاجتماعية والسياسية والفكرية، وهو ما شق على فئة من المسلمين الذين دخلوا الدين الجديد، ويريدون ألا يقطعوا علاقاتهم هذه مع أهل الكتاب، فرد عليهم القرءان بهذه الآية وبما قبلها من الآيات فقال: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾([2]) فاتضح من السياق العام للآيات أن هذا الاتباع لا ينصرف إلى معنى الاقتداء في الصلاة والصوم وفروع الدين، بل هو اتباع بمعنى موالاة المؤمنين ومناصرتهم، ومعاداة أهل الكتاب ومخالفتهم وقطع الصلة بهم.

**الآية الثانية:**

**قال تعالى: ﴿قد كانت لكم إسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذا قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده﴾**([3])

وقد جاءت هذه الآية صريحة في قصر وجه التأسي على نوع خاص منه وهو

---

[1]. سورة آل عمران، الآية: 31 ـــ 32

[2]. سورة آل عمران، الآية: 28

[3]. سورة الممتحنة، الآية: 4

إخلاص الولاء لدار الإسلام وأهلها، ووجوب إظهار العداء والبغضاء لدار الكفر وأعداء أمة التوحيد، مع تحمل كل يترتب على هذا الموقف من أنواع البلاء في المال والأهل والنفس، وهو ما توضحه لنا قصة حاطب بن أبي بلتعة الذي نزلت فيه السورة([1]).

قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: ( يقول تعالى ذكره: قد كانت لكم إسوة حسنة في إبراهيم والذين معه في هذه الأمور التي ذكرناها من مباينة الكفار ومعاداتهم، وترك موالاتهم.. فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله، فتبرأوا من أعداء الله من المشركين، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده، ويتبرأوا من عبادة ما سواه، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء) [2]

وقال القرطبي: ( لما نهى الله عز وجل عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه السلام، وإن من سيرته التبرؤ من الكفار، أي فاقتدوا به وأتموا ) [3]

ثم قال:(لما نزلت هذه الآية عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين، فعلم الله شدة وجد المسلمين من ذلك فترلت: ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾([4])

وما أحوج المسلمين اليوم إلى إحياء هذا النوع من التأسي في نفوس الناشئة في هذا العصر ليتربوا على حب الأوطان، وترسيخ هذا الدرس في الإخلاص والتضحية بالنفس والنفيس للذود عن حياض الأمة من كل أعدائها في السر والعلانية، وذلك بأن ننفث بين جوانحهم من معاني هذه الآيات الكفيلة بتطهير النفوس من كل نوازع الضعف والهم بالخيانة والعمالة، وهو ما يذكرنا بحال النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يوم وقف على مشارف مكة مودعا لها في هجرته إلى المدينة قائلا: ( أما إنك من أحب بلاد الله إلي، ولولا أن أخرجني قومي منك ما

---

[1]. انظر القصة في تفسير ابن كثير، في مطلع تفسير سورة الممتحنة 364/7. وهي مخرجة في الصحيحين.

[2]. الطبري، الجامع الصحيح:مج80/14

[3]. القرطبي، الجامع لحكام القرءان:56/18

[4]. المصدر نفسه: 58/18

خرجت..) فما أجدر بنا أن نتمثل بهذا الموقف في الغيرة على البلاد والاعتزاز بالانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس كما قال الشاعر:

بلادي وإن جارت علي عزيزة وقومي وإن ضنوا علي كــرام

**الآية الثالثة: ()**

**وهي قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾**([1])

فلفظ الآية يفيد عموم التأسي به صلى الله عليه وسلم، وربما جعل جمهور العلماء هذه الآية نصا في وجوب التأسي به في مختلف أحكام الشريعة عملا بالقاعدة الشهيرة " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" ولكن عموم اللفظ ــ أو عبارة النص ــ هنا لا يعني بحال من الأحوال أنها دعوة إلى التأسي به في مختلف شؤون الدين، بل إن عموم اللفظ هنا معناه ألا نقصر دعوة الإقتداء والتأسي على الذين نزلت فيهم الآية، وإنما هي خطاب لجميع المؤمنين، ولكن على معنى أن التأسي هنا يرتبط بما يستقيم وسياق الآيات التي سبقتها والتي لحقتها، ولك أن تتأكد من صحة ما قلناه من خلال ما قاله المفسرون في معنى الآية.

قال ابن كثير:(هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ــ ص ــ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ــ ص ــ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه.. ولهذا قال للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب ﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة﴾ أي هلا اقتديتم وتأسيتم بشمائله.) (2)

وقال الطبري:( يقول جل ثناؤه: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، أن تتأسوا به **وتكونوا معه حيث كان، ولا تتخلفوا عنه** "لمن كان يرجو الله" يقول:

---

[1]. سورة الأحزاب: الآية:21

[2]. ابن كثير، تفسير القرءان العظيم: 263/5

فإن من يرجو ثواب الله ورحمته في الآخرة لا يرغب بنفسه، ولكنه تكون له به أسوة في أن يكون معه حيث يكون هو.) ([1])

فأنت ترى كيف وجه المفسرون الآية إلى نوع خاص من التأسي به عليه الصلاة والسلام، وهو نوع مستفاد من سياق مجموع الآيات، فكان معنى مقدما على المعنى الذي يستفاد من مطلق ألفاظ الآية.

ويمكن القول إن الآية قد دلت من خلال السياق على نوعين من التأسي:

— نوع خاص من التأسي من صبر وثبات في وجوه الأعداء، وهو الجانب المنسي في حياتنا، لأن التحقق به لا يطيقه إلا خواص المؤمنين من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، ودليل تخصيص بعض المؤمنين بهذا التأسي دون بعض مستفاد من الآية اللاحقة وهي قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ ([2]) فإن لفظ "من" تفيد التبعيض والتمييز، كما أثنى على أصحاب هذه الدرجة من التأسي بجملة من الصفات من ذلك أنهم **رجال**، وأنهم **صدقوا** في عهدهم فلم يخلفوا، **وثبتوا** ولم يبدلوا.

— ونوع عام من التأسي مشاع بين الدهماء من المؤمنين، بل ويتستر به أيضا المنافقون يخادعون الله والذين آمنوا، وهو دون التأسي الأول في كلفته وفي ثمرته.

**الآية الرابعة:**

قال تعالى: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾([3])

وأما هذه الآية فقد دلت بلفظها وسياقها معا على أعلى مقامات التأسي، والمتمثلة في الصبر على حمل أعباء الدعوة إلى الله، وما أشقها وأثقلها من أعباء، ومعنى الآية أن على الرسول أن يتبع الأنبياء السابقين في لزوم التوحيد وما ينبني عليه من شرائع، وأن يتحقق بشروط حمل هذه الرسالة، وذلك بأن ينبذ الشرك وما يحويه من مفاسد فكرية وسلوكية وغيرها، وأن يستمسك بالذي أوحي إليه على ما فيه من

---

[1]. الطبري، جامع البيان: 172/11

[2]. سورة الأحزاب، الآية: 23

[3]. سورة الأنعام، الآية: 91

مخالفة صارخة لقومه، ولا شك أن لزوم الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ طريق الأنبياء الذين سبقوه ومخالفة قومه فيما اعتقدوه قد كلفه من عناد قومه وإصرارهم على باطلهم ما كلفه، وهو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا﴾[1]

وبذلك خرجت الآية عن معنى كونها نصا في فضل التأسي في فروع الدين من سنن وآداب وغيرها، بل هي نص في فضل التأسي في المواقف الدعوية والتبليغية تجاه الأعداء الذين قال فيهم القرءان الكريم: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك..﴾ [2] فأرشده القرءان الكريم إلى التأسي بأسلافه من الأنبياء في تلك المواقف العصيبة حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، وهي كقوله تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾[3] ولا يقوى على حجم هذا التأسي إلا القلة الذين اصطفاهم الله لهذا الشأن، والله أعلم حيث يجعل رسالاته.

وحسبنا نحن اليوم أن نلثم أهداب هذا المقام الرفيع بقدر طاقتنا المحدودة، متمثلين بقول الشاعر الحكيم:

**وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح**

ونخلص من عرض هذه الشواهد القرءانية في الدعوة إلى التأسي بالرسول ـــ ص ـــ إلى القول: إن أصحاب الهمم الضعيفة والطموحات المحدودة إذا سمعوا مثل هذه الآيات انصرفت قواهم النفسية إلى محاكاة الرسول في صغائر الأمور في بعض الآداب وسنن الفطرة وبعض السلوكات التي هي إلى العادات أقرب منها إلى العبادات، كما شغلوا أنفسهم كثيرا بوضع رسائل علمية أسهبوا وأطالوا من خلالها في عرض أحواله عليه الصلاة

[1]. سورة الإسراء، الآية: 74

[2]. سورة الأنفال، الآية:30

[3]. سورة الأحقاف، الآية: 35

والسلام في مأكله ومشربه ونومه وغيرها، وهو شيء محمود إذا لم يكن فيه شاغل أو صارف عن التأسي به فيما هو أهم وأكبر.

وأما أصحاب الهمم العالية والطموحات العريضة فإنهم إذا سمعوا مثل هذه الآيات انصرفت همتهم إلى التأسي به في عظائم الأمور مما لا يقوى عليها إلى العظماء والأبطال من الناس، ويمكننا التمثيل لهذه الحقيقة بما قاله الشاعر المتنبي في يوم ما:

على قدر أهل العزم تأتي العـــزائم وتأتي على قدر الكرام الكرائم

**وتعظم في عـــين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم**

ويتأكد رجحان هذا النوع من التأسي على غيره بالرجوع إلى آيات أخرى زادت هذا المعنى توضيحا وتفصيلا منها قوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله﴾ (1)

فإن هذه الآية قد أنكرت على الذين يسوون من يشتغل بسقاية الحجيج والمكوث في المسجد الحرام — وما أقلها من كلفة — بالذين يخرجون للقتال في سبيل الله، وفي ذلك يقول ابن كثير المفسر : ( وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هنا، قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رجلا قال: ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر ما أبالي أن أعمل بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر الجهاد في سبيل الله خير مما ذكرتم، فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبي فسألناه، فنزلت ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾(2) وهو المعنى الذي تغنى به العالم المجاهد

---

[1]. سورة التوبة، الآية: 19

[2]. ابن كثير، تفسير القرءان العظيم: 242/3 والحديث مروي في صحيح مسلم وسنن أبي داود وغيرهما.

عبد الله بن المبارك[1] في قوله:

**يا عابد الحرمين لو أبصرتنا**
**لعلمت أنك في العبادة تلعب**
**ريح العبير لكم ونحن عبيرنا**
**وهج السنابك والغبار الأطيب**

وهذا هو المعنى للاقتداء والتأسي الذي يستقيم مع مضامين الآيات الأخرى التي وردت في الموضوع كقوله تعالى:

ـــ ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾[2]

1. عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء التميمي ن المروزي، صاحب التصانيف النافعة والرحلة الواسعة قيل إنه كان يحج عاما ويغزو عاما، وقال الإمام احمد بن حنبل: لم يكن في زمان ابن المبارك اطلب للعلم منه.وقال الذهبي: كان راسا في العلم، رأسا في الشجاعة والجهاد.مات على ضفوف الفرات منصرفا من غزو الروم. وهو أول من صنف في الجهاد. توفي سنة: 181هـــ انظر:تذكرة الحفاظ للذهبي: 1/ 274، وطبقات المفسرين للداودي: 243/1.

2. سورة التوبة، الآية: 121

﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون﴾[3]

وأخلص من هذا العرض السريع والدقيق لهذه الآيات إلى القول بأن المسلمين اليوم وحدهم هم الذين يملكون القدوة الكبري والأسوة العليا من دون الناس في شخص محمد ـــ صلى الله وعليه وسلم ـــ فأحرى بهم أن يعتزوا بهذا الفضل الذي تحسدهم الأمم عليه، قال تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾[4] فالحاسدون هنا هم أهل الكتاب واليهود منهم بخاصة، والناس المحسودون هم أمة محمد " ولقد صور القرءان الكريم حجم هذا الحسد في صورة محسوسة عندما قال: ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾[5]

3. سورة التوبة، الآية: 89

4. سورة النساء، الآية: 53

5. سورة آل عمران، الآية: 119

نعم أيها المسلمون لقد خصنا الله تعالى بأكبر قدوة وأعظم أسوة، وإن كان لا يدرك قدر هذه القدوة العظيمة إلا العظماء، وقديما قال هرقل عظيم الروم لما بلغه من أمر محمد وصفاته ما بلغه عن طريق مساءلته لأبي سفيان:( إن يكن ما تقول فيه حقا فإنه نبي، وقد كنت اعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي..) (1) وهنالك أصاب أبا سفيان من الدهشة ما أصابه فرجع لأصحابه وهو يقول:( لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنا بأمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

وفي العصر الحديث سئل الأديب الكبير فيكتور هيجو عن مكانة "مارتن لوثر"(2) و "كلفن"(3) وجهودهما الإصلاحية في الفكر المسيحي وأثرها في النهضة الأوربية بل والبشرية جمعاء فقال: كلاهما لا يصلح حذاء لمحمد.

ويكفينا أن نرجع إلى كتاب "الخالدون مائة أعظمهم محمد" لنجد صاحب الكتاب قد جعله على قمة الهرم، وإن كنا نأبى ابتداء أن يقارن أي من الأنبياء مع غيرهم من بني البشر، من باب قول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره
إذا قيل إن السيف أمضى من العصا.

---

[1]. صحيح مسلم: 165/5

[2]. الرجل الذي تحدى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، واحتج على انحرافاتها وانشغالها بالمال والثراء على حساب المسيحية، وكان لإصلاحاته الأثر العميق في أوروبا الغربية، حتى صار يعرف بصاحب نظرية البروتستانتية، وقد ولد مارتن سنة:1483م بألمانيا، وتوفي سنة: 1546م. انظر: الخالدون مائة، أعظمهم محمد رسول الله، أنيس منصور طبعة دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط7، 1986م. ص: 95.

[3]. هو جون كلفن الرجل اللاهوتي البروتستانتي، يعتبر من اهم معالم التاريخ الأوروبي، وبجهوده صارت مدينة جنيف في سويسرا معقل المذهب البروتستانتي في أوروبا، ولد سنة: 1509م بفرنسا، وتوفي بسويسرا سنة 1564م. انظر المصدر السابق، ص: 223

# المعجزات الحسية لخاتم الأنبياء

الدكتور سعيد عليوان*

*مقدمــــــة:*

لقد أيد الله نبينا محمّد ﷺ بمعجزات حسّية تبذ كثرة مجموع معجزات الأنبياء السابقين المعروفين، وهي معجزات لا مناص من قبولها لوصولها إلينا بالأسانيد الصحيحة المتواترة المفيدة لليقين[1]. وذلك منذ أعلن أنه نبي مرسل من عند الله إلى العالمين، بل منذ ولادته، بل وقبيلها.

وكانت هذه المعجزات الحسية من جنس معجزات الأنبياء السابقين عليه، وقد أيّده الله بهذه المعجزات المادية لإلزام الشهود الحجّة وإقناعهم بصدق ما أعلنه من النبوّة والرسالة..[2] من هذه المعجزات:

ــ انشقاق القمر الذي دلّ عليه قوله تعالى : ﴿**اقتربت السّاعة وانشقّ القمر**﴾[3]. وقد روى هذا الانشقاق[4]. جمع

☆ أستاذ محاضر في الفكر الإسلامي المعاصر بكلية أصول الدين والشريعة والحضارة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

1) – محمد سعيد رمضان البوطي. فقه السيرة. ط 8. دار الشهاب للطباعة والنشر. باتنة. 1985. ص 149.

2) – طه الدسوقي. نظرية النبوة في الإسلام. د. ط. دار الهدى. القاهرة. 1981. ص 124.

3) – القمر: 1.

4) – حديث انشقاق القمر. أخرجه البخاري في كتاب "أحاديث الأنبياء"، وأخرجه مسلم في كتاب "صفة القيامة"، وأخرجه غيرهما من عامة علماء الحديث. وقال ابن كثير: وردت بذلك الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. (ابن كثير أبو الفداء إسماعيل. تفسير القرآن العظيم. د.ط. دار الفكر. د م ن. د ت. ج4. ص 261.

كبير من الصحابة، منهم عبد الله بن مسعود. وكان ذلك في مجال التحدّي[5]. استجابة لدعوة الرسول ﷺ[6].

ـــ كلام الجمادات : قال أنس بن مالك كنا عند رسول الله ﷺ فأخذ كفا من حصى فسبّحن في يده حتى سمعنا التّسبيح.

ـــ شهادة الشجرة والذئب له بالنوبة: والأمر مروي عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وهما ثقات[7].

ـــ نبع الماء من بين أصابعه الشريفة : يقول أنس بن مالك "أوتي رسول الله ﷺ بقدح فيه ماء قليل وهو بقباء فوضع يده فيه فلم تدخل، فأدخل أصابعه الأربع وقال للناس : هلمّوا إلى الشراب. قال أنس فقد رأيت الماء وهو ينبع من ين أصابعه. فلم يزل الناس يروون حتى رووا" [8]. وقد تكرّر هذا يوم الحديبية. فعن

---

بذلك الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. (ابن كثير أبو الفداء إسماعيل. تفسير القرآن العظيم. د.ط. دار الفكر. د م ن. د ت. ج4. ص 261.

5) – محمد الأنور حامد عيسى، وأحمد أحمد أبو السعادات. في رياض العقيدة الإسلامية. د ط. دار التوفيقية للطباعة. الأزهر. القاهرة. د ت. ص 161–162.

6) – طه الدسوقي. المرجع السابق. ص 124.

7) – محمد الأنور حامد عيسى، وأحمد أحمد أبو السعادات. المرجع السابق. ص 162.

8) – حديث نبع الماء من بين اصابعه الشريفة ﷺ. أخرجه البخاري في كتاب الوضوء. ومسلم في كتاب الفضائل. ومالك في الموطإ في كتاب الطهارة. وغيرهم من أئمة الحدث بطرق مختلفة كثيرة حتى نقل الزرقاني عن القرطبي قوله: إن نبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكرر في عدة مواطن في مشاهد عظيمة وورد من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي. (راجع الزرقاني عن الموطإ. 1/ 65، عن البوطي. فقه السيرة. ص 149–150 ).

سالم بن أبي الجعد عن جابر ﷺ قال : لما كنا يوم الحديبية أتى النبي ﷺ بركوة فيها ماء ـــ والركوة إناء صغير من الجلد يشرب به الماء ـــ فجهش الناس ـــ أي استعدوا للشرب من شدة العطش ـــ فقلت ما مع الناس ماء إلاّ ما بين يديك يا رسول الله. قال : فوضع النبي ﷺ يده في الرّكوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه الشريفة كأنها العيون. فأصاب الناس من الماء حاجتهم، قال: قلت له كم كنتم. قال : لو كنا مائة لكفانا، كنا خمسة عشر مائة"(9).

ـــ حنين الجذع إلى رسول الله ﷺ: جاء في الصحيحين عن جابر قال : "كان رسول الله ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع من جذوع النخل، فلما صنع المنبر وقام عليه سمعوا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت".

ـــ إشباع الخلق الكثير من الطعام القليل : وفي الصحيحين أيضا عن جابر أن شاته التي ذبحها لرسول الله ﷺ مع صاع من شعير أكل منها من كان يحفر الخندق وهم ألف، لأن رسول الله ﷺ باركها، يقول جابر في النهاية : "وإنا برمتنا لتفط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو".

ـــ ومن المعجزات الحسية ما كان في ذاته مثل النور الذي كان يتنقل من ظهر إلى بطن إلى ظهر إلى أن جاء ﷺ.

ـــ خاتم النبوة الذي كان بين كتفيه ﷺ (10).

9) – والحديث مروي بألفاظ أخرى عن قتادة وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما (محمد الأنور حامد عيسى، قضايا عقدية. ط1 . شركة الصفا للطباعة والترجمة والنشر. القاهرة. 1988. ص 123).

10) – محمد الأنور حامد عيسى، وأحمد أحمد

ـــ تسليم الشجر والجبال عليه ﷺ :
فعن علي ﷺ أنه قال : "كنت مع النبي ﷺ بمكة فلم يمر النبي ﷺ بشجر ولا جبل إلا قال : السلام عليك يا رسول الله" والحديث مروي بروايات أخرى عن عمر بن الخطاب ﷺ وعن وكيع بن مرة عن أبيه[11].

ـــ ما حدث لسراقة بن جعشم وفرسه وهو يلحق برسول الله ﷺ[12]. فهي معجزة خارقة لرسول الله ﷺ اتفق أئمة الحديث على صحتها ونقلها، وفي مقدمتهم البخاري ومسلم.

ـــ ومن أبرز المعجزات الخارقة خروجه من بيته أثناء الهجرة والكفار محيطون ببيته يتربصون به ليقتلوه. فقد علق النوم بأعينهم جميعا حتى لم يحسّ به أحد منهم، وكان من تَتِمَّة السخرية بتآمرهم على حياته ما امتلأت به رؤوسهم من التراب الذي ألقاه رسول الله ﷺ عليها إذ خرج من بينهم وهو يتلو قوله تعالى :﴿**وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون**﴾[13].

ـــ علم رسول الله ﷺ بمؤامرة بني النضير في الغدر به، وذلك عندما قرروا أن يقوم عمر بن جحاش النضري بأن يظهر على البيت ويطرح صخرة على رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ واقفا إلى جنب جدار من بيوتهم، فأخبره الله عز وجلّ، فنهض ﷺ سريعا وتوجه إلى المدينة ولحقه أصحابه فقالوا : قمت ولم نشعر... قال ﷺ : "همت يهود بالغدر

---

أبو السعادات. المرجع السابق. ص 161-163

11) – محمد الأنور حامد عيسى. قضايا عقدية. ص 124.

12) – ومن أراد معرفة التفاصيل فليرجع إلى كتب السيرة النبوية وكتب الصحاح.

13) – يس: 8.

فأخبرني الله بذلك فقمت" وهذا يعدّ واحدة من الخوارق الكثيرة التي ألهم الله بها رسوله محمدا ﷺ.[14]

ـــ قصة المشرك الذي أخذ سيق رسول الله ﷺ وهو نائم تحت الشجرة في غزوة ذات ارقاع، حيث ترك رسول الله ﷺ تحت سَمُرَة فعلق بها سيفه فنام ونام الصحابة وإذا رسول الله يدعوهم فجاؤوه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ : إنّ هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستقظت وهو في يده صلتًا، فقال لي : م يمنعك مني؟ فقلت له : الله. فها هو جالس... ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ[15]. فهذه من الخوارق، إذ كان من السهل الطبيعي بالنسبة لذلك المشرك وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبي ﷺ وهو أعزل غارق في غفلة النوم، أن يهوي به عليه فيقتله، ولكن العناية الإلهية تدخلت لتملأ قلب المشرك بالرعب، وأن تقذف في ساعديه تيارا من الرجفة فيسقط من يده السيف ثم يجلس متأدبا مطرقا بين يدي خاتم الأنبياء. وهذا تجسيدا لقوله تعالى: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾[16].[17].

ـــ بصق النبي ﷺ في عين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه يوم خيبر، حيث كان يشتكي منها، فبرأت في الحال حتى كأن لم يكن بها وجع[18].

ـــ ما أوحى الله إلى رسوله ﷺ من أمر

---

14) – محمد سعيد رمضان البوطي. فقه السيرة. ص 187، 259، 261.

15) – صحيح البخاري. 52/5 و 53 و 54.

16) – المائدة: 67.

17) – المراد بالقصة هنا ليس عدم التعرض للأذى، بل منع أي يد من الوصول إليه بغية اغتياله وقتله لقتل الدعوة التي بعث ليبلغها (محمد سعيد رمضان البوطي. المرجع نفسه. ص 273).

18) – وهذه المعجزة متفق عليها عند البخاري ومسلم.

الشاة المسمومة عندما أراد الأكل منها، وهي شاة مصلية (مشوية) أهدتها له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم بعد أنن سمتها وأكثرت السم في ذراعها بعد علمها بتفضيل النبي ﷺ أكل الذراع، وذلك يوم خيبر بعد فتح المسلمين لها[19].

ـــ علمه ﷺ بالكتاب الذي أرسله حاطب بن أبي بلتعة إلى وثني مكة قبل ذهاب الجيش الإسلامي لفتحها. فلقد قال النبي ﷺ لبعض أصحابه اذهبوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها. فمن الذي أخبره بأمر هذا الكتاب وأطلعه على ما دار بين الظعينة وحاطب بن أبي بلتعة في شأنه؟ إنه الوحي وإذن فهي انبوة، وهي التأييد التام من الله تعالى لنبيه حتى يتم المخطط إلهي للفتح الأعظم الذي أكرم الله به نبيه والمسلمين[20].

وقبل مواصلة حديثنا عن هذه المعجزات الحسية نذكر منها ما حدث مع مولده ﷺ مباشرة. مثل: شق إيوان كسرى. وخمذت نار فارس. وغاضت بحيرة ساوة. مما يعني أن هذا الوجود فرح بميلاد خاتم الأنبياء ﷺ اذي أتى ليعيد انسجام الإنسان مع الوجود كله، أو ليعيد انسجام الانسان والكون في حضرة الجلالة الإلهية لأنه ﴿**وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده**﴾[21]. والإنسان هو الذي انحرف فأتى محمد ﷺ ليقوّم اعوجاجه ويعيده إلى الانسجام مع الكون في عبادة الله وتسبيحه[22]. بل نجد أن معجزات

---

19) – وهذه الحادثة متفق عليها عند البخاري ومسلم.

20) – محمد سعيد رمضان البوطي. فقه السيرة. ص 30، 331، 338، 367.

21) – الإسراء: 44.

22) – محمد متولي الشعراوي. معجزات الرسول ﷺ (ضمن مجموع). د ط. دار

الرسول ﷺ حدثت قبيل ميلاده ﷺ في عام ميلاده، ويتمثل ذلك في تدمير الله عز وجلّ لأبرهة الأشرم وجيشه بالطير الأبابيل، هذا الأشرم الذي أتى لهدم الكعبة التي يتكون قبلة للنبي محمد ﷺ والتي سيولد بها وسينـزل عليه الوحي فيها. وبهذا يمكن القول أن الله عزّ وجلّ حافظ على مبنى البيت في ذلك العام وأوجد فيه الشخص الذي يحافظ على معناه في ذلك العام. فتكون المحافظة على المبنى بمنع أبرهة الاشرم من هدمه، هي عينها المحافظة على بقائه لربه بميلاد حبيبه ﷺ[23].

ومنها ما حدث في السنين الأولى بعد الميلاد، وفيها حادثة شق الصدر التي وقعت في السنين الخمسة الأولى من ميلاده ﷺ وهو في بني سعد مع مرضعته حليمة السعدية، حيث جاءه ملكان فشقا بطنه واستخرجا من قلبه علقة سوداء، فطرحاها ثم غسلا قلبه، حتى أنقياه وردّاه كما كان[24]. عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشقّ عن قلبه، فاستخرجه، فاستخرج منه علقة، فقال : هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ــ يعني مرضعته ــ أن محمدا قد

---

الشروق. بيروت. 1981. ص 82.

23) - المرجع نفسه. ص 82.

24) - أبو الحسن الندوي. السيرة النبوية. ط 5. دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة. جدة. 1983. ص 88.

انظر أيضا: ابن هشام: السيرة النبوية. تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ط 2. البابي الحلبي. مصر. 1955 م. ق 1. ص 164-165. والرواية هنا ملكان بينما حديث أنس أن الذي أتاه هو جبريل عليه السلام كما هو مبين.

قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون"[25].

وهذه القصة التي روعت حليمة وزوجها ومحمد مسترضع فيهم تكرّرت مرة أخرى بعد أن تجاوز رسول الله ﷺ الخمسين من عمره. فعن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال : بينا أنا في الحطيم ــ وربما قال في الحجر ــ مضطجع بين النائم واليقظان أتاني آت، فشق ما بين هذه إلى هذه ــ يعني ثغرة نحره إلى شعرته ــ قال : فاستخرج قلبي : ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيمانا، فغسل قلبي، ثم حشي، ثم أعيد.."[26].[27]

هذه بعض معجزات الرسول ﷺ الحسية، ونختمها بالإشارة بالتفصيل الموجز إلى معجزة الإسراء والمعراج، وذلك لأنه محلّ طعن من رجال الاستشراق والتنصير. وقبل التحدث عنها نسجل بعض الملاحظات حول هذه المعجزات، هي :

ــ معجزات خاتم الأنبياء هي من الكثرة، ولم تختص بمكان دون مكان، لأن من جملتها اشنقاق القمر، وهو يعم الأرض وذلك لأن نبوة محمد ﷺ عامة، لا

---

25) - حديث صحيح. اخرجه مسلم. (1/ 101-102) وأحمد 121/3، 149، 228) زاد في آخره: وقال أنس: وكنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره. وللحديث شواهد كثيرة منها عن عتبة بن عبد السلمي عن الدارمي ( 811) والحاكم 616/2) صححه ووافقه الذهبي. ومنها عن أبي بن كعب عن عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (139/5) ومنها عن أبي ذر عن ابن جرير في تاريخه (51/2-52).

26) - حديث صحيح. أخرجه البخاري (6/ 332) ومسلم (103/1-104) والنساي (1/ 76) من حديث مالك بن صعصعة.

27) - محمد الغزالي. فقه السيرة. د ط. دار الشهاب للطباعة والنشر. باتنة. الجزائر. دت. ص 63-64.

تختص بقطر دون آخر، وغاضت بحيرة ساوة في قطر، وسقط إيوان كسرة في قطر، وانهدمت الكنيسة بالروم، إعلانا بأنه سيكون أمر عــــام[28].

ــــ هذه المعجزات وردت بأسانيد صحيحة وصل أكثرها إلى التواتر الفعلي أو المعنوي، وأضعفها سندا أصح ليس من معجزات "يسوع" من خلال العهد الجديد فحسب، بل من العهد الجديد نفسه الذي يفتقر إلى الصحة، وهذا يكفي في الردّ على رجال الاستشراق والتنصير، وسيظهر لنا سبب تهجمهم على هذه المعجزة أثناء عرضنا لها.

**معجزة الإسراء والمعراج :**

حادثة الإسراء والمعراج ورد بشأنها حديث الإسراء والمعراج، وهو متفق ٌعليه لا تنكر قطعية ثبوته، وهو بإجماع جماهير المسلمين من أبرز معجزاته ﷺ [29]. وذلك لأن النص القرآني بيّن وأثبت أن الإسراء والمعراج قد تمّ بالفعل، يقظة لا مناماً، ذلك أنه... بقوله تعالى : ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله**﴾[30].

والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء، وإذن لم يكن مستعظما.

ولو كان مجرد منام ما بادر كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم، كما أن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وليس ما يقع في

---

28) – تفسير الفخر الرازي.م 12.ج25. ص 80 عن محمد الأنور حامد عيسى. قضايا عقدية. ص 122.

29) – محمد سعيد رمضان البوطي. فقه السيرة. ص 150.

30) – الإسراء: 1

المنام. وقد قال تعالى: ﴿**أسرى بعبده**﴾ كما أن الإسراء لغة هو السير بالليل. وهو لا توصف به الروح، بل يوصف به الإنسان كاملا بروحه وجسده إذا سار ليلا من مكان إلى آخر، ولما كان هذا معنى الإسراء فإن تأكيده بـــ"ليلا" له دلالته وأهميته.

وقال تعالى : ﴿**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة للناس**﴾[31]. قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة اسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم[32]. وقال تعالى : ﴿**ما زاغ البصر وما طغى**﴾[33]. والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضا فإنه ﷺ حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وهذا يكون للبدن لا للروح لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه[34].

كما أن الفعل منسوب إلى الله عزّ وجلّ فهو يقول : ﴿**أسرى بعبده**﴾ أي الفاعل هو الله وليس محمدا، وإنما محمد ﷺ وقع عليه الفعل. فمحمد ﷺ قال : أسري به لا هو الذي سرى بنفسه. وهنا فإن من الحماقة والبلاهة أن نستغرب ذلك على الله، ومن الأمثلة الموضحة لهذا "لو قلت صعد بابني الرضيع قمة جبل هيمالايا، ايقول مجنون لي : كيف يصعد ابنك الرضيع قمة جبل هيمالايا؟ لا يقول لي أحد هذا، والذي يقول هذا يكون عقله مختلا، إنما يقول لي "كيف صعدت أنت؟". وعندما يكون الله عز وجل هو الذي أسرى بمحمد فإن الحادثة تعد طبيعية بالنسبة إلى الله عز وجل، لأنه على

---

31) – الإسراء: 60.

32) – رواه البخاري.

33) – النجم: 17.

34) – ابن كثير إسماعيل. تفسير القرآن العظيم. ج3. ص 23.

كل شيء قدير لا يخضع لقانون البشر، ولا الزمان ولا المكان...". [35].

ومن الأدلة أيضا على أنه كان بالجسد والروح يقظة لا مناما، أن الكفار عندما كذبوا النبي ﷺ في ذلك أتاهم بدليل مادي قوي. ويتمثل ذلك في قوله مبرهنا لهم على صدقه في رواية الإسراء : "آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فأنفرهم حس الدابة ــ البراق ــ فندّ لهم بعير فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام ــ التوجه بالفعل وبالجسم لا بالروح وحدها مناما ــ ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان[36]. مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياما، ولهم إناء فيه ماء قد غطّوا عليه بشيء فكشفت غطاءه وشربتُ ما فيه ثم غطتُ عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب[37]. من البيضاء[38]. ثنية التنعيم[39]. يقدمها جمل أورق[40]. عليه غرارتان إحداهما سوداء

35) – محمد متولي الشعراوي. الإسراء والمعراج. تقديم أحمد فراح. د ط. دار الشروق. القاهرة. بيروت. 1981. ص 35-36.

36) – ضنجان (البتحريك) جبل بناحية تهامة على بريد من مكة. وقال الواقدي:ضنجان ومكة 25 ميلا (مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. السيرة النبوية لابن هشام. م1. هامش 5. ص 402.

37) – يصوب: يترل من يمل (المرجع نفسه. هامش1. ص 403).

38) – البيضاء: عقبة بمكة تهبطك إلى فخ وأنت مقبل من المدينة تريد مكة. أسفل مكة من قبل ذي طوى (المرجع نفسه. هامش2. ص 403).

39) – التنعيم: موضع بمكة في الجبل، وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة (المرجع نفسه. هامش3. ص 403).

40) – الأورق: الذي لونه بين الغبرة والسوداء (المرجع نفسه. هامش4. ص 403).

والأخرى برقاء[41]. قالت ـــ أم هاني ـــ فابتدر القوم الثنية فلم يَلْقَهُمْ أوَّلُ[42]. من الجمل كما وصف لهم. وسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءا ماء ثم غطوه، وأنهم هبوا فوجدوه مغطّى كما غطّوه، ولم يجدوا فيه ماءً، وسألوا الآخرين وهم بمكة فقالوا : صدق والله، لقد أُنفرنا في الوادي الذي ذكر، وندّ لنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه".[43].

يضاف إلى ما سبق، فإنه لأهمية الحدث، فقد سميت به سورة كاملة في القرآن الكريم من طوال المفصل، تحتوي على أكثر من حزب وثمن، فلو كانت حادثة الإسراء والمعراج مجرد رؤيا في المنام ما احتاجت إلى أن تخلد بأن تسمى بها سورة كاملة من طوال المفصل.

وبهذا فإنه لا يمكن ـــ في اعتقادنا ـــ الاعتداد برواية أمنا عائشة (رضي الله عنها) التي تذكر فيها أن الإسراء تم بالروح فقط. وهو ما استند إليه بعض المنصّرين الفرنسيين، وذلك لأنها خلاف ما بينه القرآن الكريم كما بيّنا آنفا، كما أن تلك الرواية تنقصها الدقة المتطلبة في معرفة الرواة، وها هي الرواية "قال ابن إسحاق : وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول : ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن أسري بروحه"[44].

فيجب أن يحدد هذا البعض، ويزيدنا اقتناعا بما سبق ذكره، أن أمنا عائشة (رضي الله عنها) روت حادثة الإسراء إلى

---

41) - البرقاء: التي فيها ألوان مختلفة (المرجع نفسه. هامش5. ص 403).

42) - يريد أن الجمل كان أول من نلقيهم (المرجع نفسه. هامش6. ص 403).

43) - ابن هشام. السيرة النبوية. م1. ص 402-403.

44) - المصدر نفسه. ص 399.

المسجد الأقصى بالفعل وبينت في حديثها ارتداد بعض ضعاف الإيمان بسبب ذلك، وتصديق أبي بكر ﷺ للحادثة إلى آخر الحديث، وهذا الحديث رواه البيهقي بسند يصل إلى الزهري عن عروة عن عائشة[45]. ولا يمكن لأمنا عائشة أن تروي روايتين متناقضتين، ولما كانت هذه الثانية هي المتوافقة مع نصوص القرآن الكريم فإنه يجب الأخذ بها.

وهنا نتوصل إلى التساؤل عن الاسباب التي جعلت رجال الإكليروس والاستشراق يطعنون في حادثة الإسراء والمعراج. فمن أهم تلك الأسباب :

أنه ورد فيها أن الرسول ﷺ أمَّ الأنبياء في بيت المقدس بعد رجوعه إليه من المعراج. لأنه ﷺ كما مرّ بهم في منازلهم في السماء جعل يسأل عنهم جبريل عليه السلام واحدا واحدا وهو يخبره بهم. وهو ما علق عليه ابن كثير قائلا : "وهذا هو اللائق، لأنه كان أولا مطلوبا إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ــ ومنهم المسيح عليه السلام ــ ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك"[46]. وهذا هو ــ في نظرنا ــ أحد أسرار حقد رجال الإكليروس وتكذيبهم لهذه الحادثة، لأنها تبيّن تبعية المسيح لمحمد ﷺ، وتفضيل[47]. محمد ﷺ

---

45) - ابن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج3. ص 21.

46) - المصدر نفسه. ج3. ص 23.

47) - الواقع أن تفضيل محمد ﷺ على سائر الأنبياء ورد في أحاديث صحيحة منها: قوله ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر" رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة عن أبي سعيد وهو حسن. ومعناه لا أقول ذلك فخرا بنفسي، بل تحدثا بنعمة ربي. وقوله ﷺ: "أعطيت خمسا لم

يعطهن احد قبلي. كان كل نبي يبعث إلى قومه ضامن. وبعثت إلى كل أحمر وأسود. وأحلت لي الغنائم و لم تحل لأحد قبلي. زجعلت لي الأرض طيبة طهورا ومسجدا، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان. ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة. رواه الشيخان/ عن رشدي محمد علي وقحطان عبد الرحمن الدوري. ط 4. وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. جامعة بغداد. 1990 م. ص 380-381 .

ولقد فضله القرآن الكريم على سائر الأنبياء، ومن ذلك:

ـــ الخطاب: فحين يخاطب الله جميع الرسل إنما يخاطبهم بأسمائهم مباشرة، فيقول: "ويآادم عن هذا عدو لك ولزوجك" (طه: 117). ويقول: "يانوح اهبط بسلام منا " (هود:48). ويقول: "ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله.." (المائدة:116). ولكنه حينما يتوجه بالخطاب إلى حبيبه الأعظم لم يقل له: يامحمد، وإنما قدم بين يدي ندائه قوله: "يأيها النبي" ذلك أمر يضع رسول الله ﷺ فيرفعه إلى أقرب المكانات من ربه.

على المسيح وعلى سائر الأنبياء. ورجال الإكليروس يعملون بلا هوادة على طمس

---

ـــ القسم: من يقسم الله على أشياء ليؤكدها فإنه يقسم بأشياء كثيرة من أجناس شتى، فيقسم بالجماد وبالنبات وبالحيوان وبالملائكة، ولكنه لم يقسم ببشر مطلقا إلاّ برسوله محمد ﷺ حيث يقول: "لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون" (الحجر:72) أي وحياتك يامحمد. وبهذا فإن عمر رسول الله وحياته أمر له مقامه عند الله (محمد متولي الشعراوي. معجـزات الرسول ﷺ. ص 74-75).

ـــ الصلاة: الله عمّ الأنبياء بالسلام ومحمد ﷺ وخصه دونهم بالصلاة، فقال تعالى عن يحيى: "وسلام عليه يقم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا" (مريم: 14). وقال عن عيسى ـــ وهذا بيت القصيد ـــ: "والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا" (مريم: 32). وقال عن محمد ﷺ: "إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما" (الأحزاب: 56) فهو الوحيد الذي حص بالصلاة من الله والملائكة والمؤمنين..الخ

دين محمد ليثبتوا أن نصرانية بولس وقسطنطين هي الدين الخاتم. وهنا نتوصل إلى السبب الآخر الذي جعلهم يكنون حقدا لا نظير له على خاتم الأنبياء هو أن إمامة خاتم الأنبياء في بيت المقدس، إنما هي إقرار مبين بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه أخذت تمامها على يد محمدﷺ [48]، وأن إسراءه ﷺ من مكة إلى بيت المقدس يعد بمثابة إدخال بيت المقدس في مقدسات الدين الجديد. وهذه العملية توضح وتبيّن أن دينه يهيمن على كل البقع وكل مقدسات البقع، ولا سيما أننا اتجهنا إليه أولا، وبذلك فلا يستطيع أحد أن يقول : أنتم لكم دينكم ونحن لنا ديننا، صحيح أن ديننا جاء في مكة، لكنه مهيمن على سائر الكتب، ورسولنا مهيمن على مقدساهم، وهذه المقدسات داخلة أيضا في مقدّساتنا، وبالإسراء والمعراج إذن أصبح بيت المقدس في مقدساتنا لأنه صار منتهى مسرى النبي وبداية معراجه ﷺ[49]. وهذا هو السر الذي يوجب علينا نحن المسلمين تحرير كل فلسطين من اليهود المستعمرين. وهو السر نفسه الذي جعل المبشرين في الجزائر إلى اليوم يعملون بلا هوادة ليرسخوا في أذهان المخدوعين من الجزائريين أن فلسطين أرض اليهود التاريخية ولذلك فلا يجوز إخراجهم منها.

ويضاف إلى السببين السابقين أنه مما ورد في حديث الإسراء والمعراج برواية البخاري أن النبي ﷺ صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فوجد فيها يحي وعيسى عليهما السلام فسلم عليهما فردا السلام ورحبا به ﷺ ثم صعد إلى السموات التي فوقهما، والنصارى لا

48) – محمد الغزالي. فقه السيرة. ص 138.

49) – محمد متولي الشعراوي. الإسراء والمعراج. ص 45-46.

يعجبهم أن يسمعوا أن محمدا ﷺ عُلا به فوق المسيح ووصل إلى ما لم يصل إليه المسيح عليه السلام. وإذا عبرنا بتعبير النصارى قلنا: لا يعجبهم أن يسمعوا أن محمدا ﷺ صعد فوق ربهم وأصبح هو فوق وربهم تحت.

والخلاصة مما سبق : أن الإسراء والمعراج وقعا بالفعل روحا وجسدا، وقد أشار القرآن الكريم إلى كلتي الرحلتين في سورتين مختلفتين :

ـــ ذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله : ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير**﴾[50]. فتعليل الإسراء كما نصت عليه الآية أن الله يريد أن يرى عبده محمدا ﷺ بعض آياته. [51].

ـــ وذكر قصة المعراج وثمرته بقوله : ﴿... **ولقد رآه** ـــ يعني جبريل ـــ **نزلة أخرى عند سدرة المنتهى... لقد رأى من آيات ربه الكبرى**﴾[52]. فأوضحت آيات المعراج أن الرسول ﷺ شهد ـــ بالفعل ـــ بعض هذه الآيات الكبرى[53].

وتذييل آية الإسراء بقوله : ﴿**إنه هو السميع البصير**﴾[54]. فإنه يبين العلة الحقيقة التي جعلت الله عزّ وجلّ يسري برسوله ﷺ فقد سمع الله الإيذاء الذي

---

[50]) – الإسراء: 1.

[51]) – ومن اراد أن يعرف ما رأى من آيات في الإسراء والمعراج فليرجع إلى تفسير ابن كثير. ج3 . ص 2-24. وقد أورد الروايات الكثيرة لحديث الإسراء والمعراج، وكذا سيرة ابن هشام. م1. ص 403. وفقه السيرة. محمد الغزالي. وفقه السيرة للبوطي. والإسراء والمعراج للشعراوي وغير ذلك من كتب السيرة وكتب الصحاح.

[52]) – النجم: 18.

[53]) – محمد الغزالي. فقه السيرة. ص 134-135.

[54]) – الإسراء: 1.

أوذي به رسول الله ﷺ وقد رأى الله ما تعرض له محمد ﷺ من الجفاء والاستهزاء والسخرية والإهانة، كل ذلك بمرأى ومسمع من الله. فحين رأى الله ذلك وسمع أرد أن يري حبيبه محمد ﷺ الآيات، فأسرى به [55].

وهكذا فإن حادثة الإسراء والمعراج وردت بنص القرآن الكريم وتواترت الأحاديث الصحيحة التي رواها مختلف الرواة من البخاري ومسلم وغيرهما بطرق مختلفة بلغت من الصحة درجة القطع، وهي بإجماع جماهير المسلمين من أبرز معجزاتهﷺ[56].

ونختم حديثنا عن هذه المعجزة بالقول بأن رجال الاستشراق والتبشير ينكرون ذهاب النبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ليلا وصعوده إلى السماء وعودته إلى مكة في ليلة واحدة. ولكنهم يؤمنون بما هو أعجب من هذا وهو إيمانهم بأن المسيح صلب وقتل ودفن ثم قام من الأموات وصعد إلى السماء وجلس على يمين الله[57]. وهذا رغم تناقض الأناجيل وتهافتها في هذه القصة وغيرها.

ونختم حديثنا عن المعجزات الحسية للنبي ﷺ بالقول بأنه رغم كثرة المعجزات الحسية للنبي ﷺ إلا أن معجزته الأساسية هي القرآن الكريم، وبذلك نستطيع القول بأن معجزات السابقين قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة، فهي تدعيم لهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء.

---

55) – محمد متولي الشعراوي. الإسراء والمعراج. تقديم أحمد فراج. ص 34.

56) – محمد سعيد رمضان البوطي. فقه السيرة. ص 150.

57) – عبد الوهاب النجار. قصص الأنبياء ط 3. مكتبة القدسي. مكتبة النهضة العربية. د م ن. د ت. هامش ص 398.

وسيرة محمد ﷺ فوق هذا المستوى، فقد تكفل القرآن الكريم بإقناع أولي النهى من أول يوم. وجاءت الخوارق في طريق الرسول ﷺ نوعا من التكريم لشخصه وإيناسه لا معكرة ولا معطلة للمنهج العقلي العادي الذي اشترعه القرآن الكريم. [58].

ونستطيع القول أيضا :

إن رسول الله ﷺ أعطاه الله المعجزات التي أعطاها للرسل السابقين، ثم ميزه بمعجزة أخرى باقية، وبذلك فإن إجراء المعجزات الكونية على يده ﷺ هو تسوية له بإخوانه من الرسل. وكانت تثبيتا ليقين الصحابة آنذاك. ومجيء المعجزة الباقية إنما هو زيادة لمكانته ومقامه على الرسل[59]. هذه المعجزة لم تكن مادة تقرع، ولا أمرا حسيا ترى العيون إعجازه رأي العين، بل كانت أمرا معنويا تتأمله العقول والأفهام، وتتعرفه المدارك البشرية في كل الأزمان، ولم يفقد صحبته ولم يزل إعجازه كر الغداة ومر المشي[60]. إنه القرآن الكريم.



قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا



---

58) – محمد الغزالي. فقه السيرة. ص 140.

59) – محمد متولي الشعراوي. معجزات الرسول ﷺ. ص 92-93.

60) – محمد أبو زهرة. شريعة القرآن من دلائل إعجازه. (سلسلة الثقافة الإسلامية. المجموعة الرابعة. 31-36). دار الثقافة العربية للطباعة. القاهرة. سبتمبر 1961 م. ص 7.